جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

فلسفة المكان في أدب الرحلة قراءة في " قصاصات مسافر " لعلي يوسف السعد

The philosophy of place in travel literature. A reading of "A Traveler's Scraps" by Ali Youssef Al-Saad

إعداد

د. شيماء عبد الرحمن حسين

أستاذ مساعد- كلية الآداب _جامعة الوصل _

الإمارات العربية المتحدة.

(العدد الثالث والأربعون)

(الإصدار الثالث-أغسطس)

(الجزء الأول (١٤٤٦هـ /٢٠٢٤م)

الترقيم الدولي للمجلة (ISSN) *2536- 9083*
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٢٤/٦٢٧١م

فلسفة المكان في أدب الرحلة قراءة في " قصاصات مسافر " لعلي يوسف السعد

شيماء عبد الرحمن حسين

أستاذ مساعد ، كلية الآداب، جامعة الوصل ، الإمارات العربية المتحدة.

البريد الإلكتروني: : *shaima.hussein@alwasl.ac.ae*

الملخص

أدب الرحلة نوع أدبي نثري؛ يقوم فيه الرحالة بوصف دقيق لما يشاهده من عادات وتقاليد وسلوكيات، وهو في وصفه هذا صاحب فلسفة متداخلة في نسيج النص الأدبي، مع شيء كثير من الانبهار؛ الذي لا يبتعد عن صميم الواقع، متناولا بوصفه هذا الاختلاف بين الأمكنة التي زخرت بها رحلته؛ لذلك تعتمد الرحلة على الوصف الذي يقوم بنقل معالم الرحلة مصطبغة برؤية الكاتب، وفلسفته الخاصة؛ فأدب الرحلة " ليس منقطعا عن قائله ؛ لأنه لو انقطع فأصبح معزولا معلقا في الفراغ لما أدى معناه، وقد حفلت كتب الرحلة بأنواع من الرحلات مختلفة الهدف؛ فقد أدرك العرب والمسلمون أهمية التجربة، والرحلة في عمل الكاتب والعالم؛ فارتادوا الآفاق ، وذهبوا إلى أقصى الأرض؛ "ذهب البخاري في رحلته الواسعة باحثا عن النص الموثق للحديث، وذهب الغزالي باحثًا عن الحقيقة، وذهب ابن بطوطة باحثا عن الحضارة، وكان المنهج الواقعي هو أقرب المناهج ارتباطًا بالرحلة "فالواقع مفهوم فلسفي يُعنى بوجود الشيء كمقابل لعدم وجوده"، وأهم ما يميز هذا المنهج "قدرته على الصمود والبقاء في وجه التيارات النقدية الأخرى التي تظهر وتختفي في حين يزداد المنهج الواقعي رسوخا.

الكلمات المفتاحية: فلسفة المكان، أدب الرحلة، قصاصات مسافر ، لعلي يوسف السعد.

The philosophy of place in travel literature. A reading of “A Traveler’s Scraps” by Ali Youssef Al-Saad

Shaima Abdel Rahman Hussein
Assistant Professor , College of Arts , Al Wasl University , United Arab Emirates.

Email: *shaima.hussein@alwasl.ac.ae*

Abstract:

Travel literature is a prose literary genre; In it, the traveler accurately describes the customs, traditions, and behaviors that he sees, and in this description he has a philosophy intertwined in the fabric of the literary text, with a lot of fascination. Who does not stray from the core of reality, describing this difference between the places that filled his journey; Therefore, the trip depends on the description that conveys the features of the trip, colored by the writer’s vision and his own philosophy. Travel literature “is not cut off from its writer, because if it were cut off and became isolated and suspended in the void, its meaning would not be fulfilled. Travel books were full of types of trips with different goals. The Arabs and Muslims realized the importance of experience and the journey in the work of the writer and scientist, so they traveled the horizons and went to the ends of the earth.” Al-Bukhari went on his extensive journey searching for the documented text of the hadith. Al-Ghazali went in search of truth, and Ibn Battuta went in search of civilization, and the realistic approach was the approach closest to the journey. “Reality is a philosophical concept concerned with the existence of a thing as opposed to its non-existence.”4 The most important characteristic of this approach is “its ability to withstand and survive in the face of other critical trends that... They appear and disappear as the realist approach becomes more established.

Keywords: *Philosophy of Place , Literature of the Travel , Scraps of a Traveler , by Ali Youssef Al-Saad.*

المقدمة

أدب الرحلة نوع أدبي نثري؛ يقوم فيه الرحالة بوصف دقيق لما يشاهده من عادات وتقاليد وسلوكيات، وهو في وصفه هذا صاحب فلسفة متداخلة في نسيج النص الأدبي، مع شيء كثير من الانبهار؛ الذي لا يبتعد عن صميم الواقع، متناولا بوصفه هذا الاختلاف بين الأمكنة التي زخرت بها رحلته؛ لذلك تعتمد الرحلة على الوصف الذي يقوم بنقل معالم الرحلة مصطبغة برؤية الكاتب، وفلسفته الخاصة؛ فأدب الرحلة " ليس منقطعا عن قائله لأنه لو انقطع فأصبح معزولا معلقا في الفراغ لما أدى معناه " (١).

وقد حفلت كتب الرحلة بأنواع من الرحلات مختلفة الهدف؛ فقد أدرك العرب والمسلمون أهمية التجربة، والرحلة في عمل الكاتب والعالم؛ فارتادوا الآفاق وذهبوا إلى أقصى الأرض؛ "ذهب البخاري في رحلته الواسعة باحثا عن النص الموثق للحديث، وذهب الغزالي باحثًا عن الحقيقة، وذهب ابن بطوطة باحثا عن الحضارة، وذهب ابن خلدون باحثا عن أصول الاجتماع، كما رحل اللغويون إلى البادية لجمع اللغة، وكذلك فعل الأطباء لجمع الأعشاب للتداوي، أما البداية الحقيقية للرحلة؛ فهي رحلة الشعراء العرب من أجل أهداف مادية ومعنوية، أو لغير ذلك" (٢).

ولم تقف الرحلة عند هذا الحد في البلاد العربية؛ بل أضاف الرحالة رصيدا هائلا من رحلات خارج نطاق المنطقة العربية؛ في بيئات مختلفة من الناحية الاجتماعية،

---

(١) د. عبد الرحيم الكردي –السرد ومناهج النقد الأدبي –مكتبة الآداب –٢٠٠٤–ص ٢٨.

(٢) د. مصطفى الصاوي الجويني آفاق من الإبداع والتلقي في الأدب والفن –دار المعارف – ١٩٨٣–ص ١٣٥.

والسياسية، والثقافية؛ فيرى كاتب الرحلة [١]* الأمم الأخرى بعين كاشفة للحقائق، تساعده في فهم النفس الإنسانية في كل مكان؛ "فالتعرف على الخبرات من أصحاب المهن المختلفة من ذوي الخبرات المتعددة في ميادين الطب، والقانون، والعلم، والأدب، والتجارة، والزراعة يقدم خلاصة من التجربة الواقعية المعاشة على أرض الواقع" [٢].

زخرت كتب الرحلة بالعديد من المشاهد التي حازت عناية كبيرة من القراء؛ لما احتوت عليه من عناصر جذب وإبداع، مع الابتعاد قليلا عن الأسلوب العلمي الجاف؛ حيث يتوزع الأسلوب فيها بين السرد القصصي، والوصف الفني المرتبط بالواقع المرئي.

وإذا كانت موضوعات الرحلة تتسع لتشمل التاريخ، والجغرافيا، والدين، والاجتماع، والسياسة؛ فإنها تُعنى بالوصف الدقيق ، والتصوير المتقن، والتعبير الصادق ؛ لذلك فإن المنهج الواقعي هو أقرب المناهج ارتباطًا بالرحلة "فالواقع مفهوم فلسفي يُعنى بوجود الشيء كمقابل لعدم وجوده "[٣]، وأهم ما يميز هذا المنهج "قدرته على الصمود والبقاء في وجه التيارات النقدية الأخرى التي تظهر وتختفي في حين يزداد المنهج الواقعي رسوخا "[٤].

---

(١) * نجد في المجال الأدبي حسين فوزي، ومحمد عوض، وطه حسين، وأحمد الصاوي، ومحمود تيمور، وعبد الرحمن صدقي في مراثيه أو جزء من وقفاته أمام آثار إيطاليا، وأنيس منصور، وعبد الفتاح رزق، وخيري شلبي ، وقبل هذا كله الرحلة الدينية إلى الحجاز لأداء مناسك الحج راجع د. مصطفى الصاوي الجويني –آفاق من الإبداع والتلقي في الأدب والفن –ص ١٣٥ .

(٢) د. صلاح رزق –أدبيه النص – دار الثقافة العربية – الطبعة الأولى – ١٩٨٩م – ١٨٣.

(٣) ياسين النصير – الرواية والمكان – دار نينوي سورية – الطبعة الثانية – ٢٠١٠ – ص ١٥.

(٤)د. نبيلة إبراهيم سالم –نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة –النادي الأدبي – الرياض –١٩٨٠ ص ٤٥.

تكون رؤية الكاتب غير مكتملة حتى يسمع ويرى بنفسه، ويتصل بالثقافات، والعقول التي تزخر بالكثير من الخبرات الحياتية الواقعية؛ فالرحالة" يجتزئ في البداية قطعة من الفضاء، ويؤطرها ويقف عند مسافة معينة منها " [١]، ثم يبدأ في رسم أبعاد المكان بكلماته ولغته؛ وتجدر الإشارة إلى أن بعض الكتاب يمتلك من الموهبة والقدرة الفنية، ما يجعله يحول المكان داخل سياق النص المكتوب، إلى ما يشبه المكان في الواقع بأبعاده وأركانه المختلفة.

جمالية الوصف في المكان:

يساعد الوصف في أدب الرحلة في تحليل الخطاب، وكشف الطرائق التي سلكها الرَّحالة في تصويره للأجناس المختلفة؛ " فبتطور الأدب من الشفاهية إلى الكتابية، تعقدت آليات إنتاجه كما تعقدت آليات تلقيه، وحتى آليات تداوله، فلم يكن ذلك الانتقال انتقالا بين أداتين، وإنما انتقال من رؤية للعالم إلى رؤية أخرى " [٢]، مما يزيد من الوعي والإدراك للعالم المحيط بنا.

وهنا يأتي دور اللغة؛ لإعادة إنتاج تجارب حية عاشها الكاتب، وانفعل بها، فاستخدم الصورة الوصفية لنقل هذه التجارب؛ فدراسة "النسيج اللغوي للنص يميط اللثام عن أعماق الذات المبدعة، ويضيء جوانبها المستترة" [٣].

---

(١) جنيت –كولد نستين –رايمون –كريفل –بورنوف / أويلى –آ يزنزفايك –ميتران –الفضاء الروائي –ترجمة –عبد الرحيم حزل –أفريقيا الشرق ٢٠٠٢ – المغرب ص ٩٩ .

(٢) د. محمد فكرى الجزار –البلاغة والسرد نحو نظرية سردية عربية –الهيئة العامة لقصور الثقافة –الطبعة الأولى –٢٠١١ م ص ٣١١.

(٣) د. شفيع السيد –نظرية الأدب دراسة في المدارس النقدية الحديثة –مطبعة العمرانية للأوفست ٢٠٠٣ ص ٢٠٥.

يوصف المكان في النص الأدبي من خلال بصيرة الكاتب وليس بصره؛ فهو مكان يصممه الكاتب بجميع أجزائه، فنرى " الاختلاف في الموقف عند تناول تفصيلات الواقع الجزئية الصغيرة، فلا يوجد كاتب حقيقي لا يعنى بتكثيف هذه الجزئيات، واستخدامها في رسم لوحته " [(١)]؛ حيث تتضافر الجزئيات مع بعضها البعض مما يجعل "الاستجابة المبدئية للعمل الأدبي استجابة عامة، فنحن نستجيب للعمل في جملته دون وعى بأجزائه التي تتضافر معا على تشكيله"[(٢)].

لذلك يهتم كثير من الرحالة بالتفاصيل الجزئية في الوصف، وهي مسألة تُسهم في عملية الإيهام بالواقعية؛ " فالتفاصيل هي بنيات صغيرة جزئية، تترابط، وتتلاحم، وتتراكم، لتشكل عالما مرئيا مقنعا، وربما مشوقا " [(٣)]، مما يساعد في بيان معالم الرحلة؛ وهنا يأتي دور الوصف الذي يقوم بدور فاعل في تشكيل الرؤية الذهنية لدى المتلقي؛ فعين الرحالة كاميرا تصور الاختلافات وتقرب صورة المكان إلى ذهن المتلقي.

تقوم جمالية الوصف في المكان، على طريقة تجميع المشاهد، والمقاطع المكونة للمكان، وتوظيفها بطريقة فنية تحقق تلك الجمالية "ولا شك أن هذا الموقف الإيصالي يقوم على عناصر متعددة، ولكنها تتلاقى فيما بينها في وحدة تعبيرية، يؤدى إدراكها

---

(١) د. صلاح فضل –منهج الواقعية في الإبداع الأدبي –مؤسسة المختار –الطبعة الثانية ١٩٩٨ ص ٢٠٩.

(٢) د. شفيع السيد –الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي –مكتبة الآداب –الطبعة الثانية ٢٠٠٩ ص١٧٦.

(٣) د. شكري عزيز الماضي –أنماط الرواية العربية الجديدة –عالم المعرفة –العدد ٣٥٥ –٢٠٠٨ ص٦١.

إلى إمكانية تحليلها وكشف نظامها، ومن ثم إلى إدراك دلالتها الجمالية " [١].

وهكذا يصبح المكان عنصرا قويا يُسهم في توضيح المعنى داخل النص السردي؛ مما يساعد في تحقيق التواصل بين النص والمتلقي ؛ فالدلالة " ترتبط بما يسمى نظرية التوصيل ؛التي تقتضى وجود جهاز ثلاثي هو المتكلم الذى يصدر منه الكلام ، والمتلقي ، قارئا أو سامعا ، ثم الحدث اللغوي الذى يتعلق بالحقائق المطروحة في المجال الكلامي ، ويضاف إلى ذلك الرمز اللغوي بأبعاده الدلالية ، الذي يقوم بمهمة إحضار صورة المخزون اللغوي إلى مجال التخاطب " [٢] ؛ مما يجعل دراسة السرد محاولة لتطبيق منهج علمي على مادة غير علمية ، "فعلى الرغم من المحاولات الشاقة المبذولة من قبل كل من الشكلانيين والبنيويين لتحديد مادة السرد في عناصر مادية جامدة؛ فإن هذه المحاولات لم تخرج طبيعة السرد عن أصلها الإنساني المتقلب المتمرد على قوانين الثبات " [٣].

فالانتقال من مستوى سردي إلى آخر لا يكون إلا عن طريق السرد الذى " هو فعل يقوم على معرفة وضع في وضع آخر، بواسطة خطاب "[٤] ؛ حيث يمثل الالتحام والتضافر" بين الأبعاد الزمنية لنظام السرد ومداه ووتيرته ، والأبعاد الفضائية لنمط

---

(١) د. محمد عبد المطلب –جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم الشركة المصرية العالمية للنشر –لونجمان – الطبعة الثانية ٢٠٠٤ص٢٠٤.

(٢) السابق –ص ٢٠٤.

(٣) د. عبد الرحيم الكردي –السرد ومناهج النقد الأدبي –ص ٨٣.

(٤) جيرار جنيت –خطاب الحكاية بحث في المنهج –ترجمة محمد معتصم –عبد الجليل الأزدي – عمر حلى –المجلس الأعلى للثقافة –المشروع القومي للترجمة –الطبعة الثانية ١٩٩٧ص ٢٤٥.

الرؤية والصوت الراوي الشكل المتفرد الخاص في هذا المجال "[١]؛ فالمعنى متصل بظروف الإرسال، والتلقي التي تمنح الألفاظ دلالاتها وفقا لقواعد علمية وخبرات القراءة[٢]، فإذا كان الأدب مختلفا عن الكلام العادي، مثله مثل سائر الفنون " فإنه مختلف عن سائر الفنون بأنه أوضح دلالة على ما في النفس " [٣].

قصاصات مسافر من كل بلد حكاية:

"قصاصات مسافر من كل بلد حكاية " للكاتب علي يوسف السعد [٤]هي حصاد بعض السفرات والأيام؛ فما يقدمه الكاتب من مشاهد لرحلته؛ ليس فصولا في كتاب؛ إنما هو رحلة عبر الزمان والمكان؛ رحلة في ميدان ثقافي، ومعرفي مختلف عن ميدان الثقافة العربية؛ وتجدر الإشارة إلى أن بعض كتاب أدب الرحلة يمتلك الموهبة التي تجعل المتلقي يشارك الكاتب رحلته؛ فيعيش معه أجواء الرحلة بجميع مراحلها منذ البدء حتى النهاية؛ " فهذه القوى التي تتألف منها موهبة الأديب، أو عبقريته ليست إلا دوافع نشطة، تعمل متآزرة في نفسه على تنفيذ العمل الإبداعي وتشكيله .. فيتمكن من صنع هذا العمل على نحو متكامل يحقق الهدف منه، وهو التأثير في

---

(١) د. سامي سويدان. جسور الحداثة المعلقة من ظواهر الإبداع في الرواية والشعر والمسرح – دار الآداب –بيروت –الطبعة الأولى –١٩٩٧–ص ٣٩.

(٢) *John Loyons: Linguistic-an introduction-Cambridge1995 p.3*

(٣) د. شكري محمد عياد–على هامش النقد –أصدقاء الكتاب للنشر والتوزيع–الطبعة الأولى – ١٩٩٣ –ص ٤٨.

(٤) علي يوسف السعد نائب مدير عام وكالة أنباء الإمارات، كاتب عمود "قصاصات مسافر" في صحيفة الاتحاد، أو كما وصف نفسه في مقدمة كتابه إنه شخص أحب السفر، بدأ طريقه للرحلة عام ١٩٩٤، تسعة وعشرون عاما بين قارات العالم، زار فيها أكثر من تسع وسبعين دولة، ومئات المدن والقرى والجزر.

نفوس المتلقين له " [١]، وكل هذا يكشف عن موهبة الكاتب، وقدرته على توظيف هذه الموهبة في نقل الرحلة من عالم الواقع إلى عالم النص.

فالكاتب علي يوسف السعد محب للرحلة بكل أشكالها وأنواعها، أو كما وصف نفسه في مقدمة كتابه؛ إنه شخص أحب السفر، أحبه بطريقة قد تُعد مرضا، ولكنه مرض جميل، يستمتع بأعراضه التي تمده بالعافية، أحب السعد السفر والترحال منذ صغر سنه، ولم يكن من أسرة تسافر كل سنة؛ فبقي السفر حلمًا، وطاقة مختزلة، كان يسافر في صغره وهو في بلده؛ من خلال قراءاته لكتب الرحالة، ثم بدأ طريقه للرحلة عام ١٩٩٤، عندما سافر إلى لبنان.

تسعة وعشرون عاما بين قارات العالم، زار فيها الكاتب أكثر من تسع وسبعين دولة، ومئات المدن والقرى والجزر، رحلات مختلفة الأغراض يجمعها جميعًا حب الرحلة، ويساعد في نجاح هذه الرحلات عوامل شخصية متعددة؛ " من ذلك تجربة الكاتب الشخصية، وقراءاته، وبيئته التي يعيش فيها، وأصدقاؤه، ومعارفه " [٢]؛ حيث يستطيع الرحالة، أن يصف الرحلة بكل أبعادها، كما يضيف لها خبراته الشخصية، ورؤيته الخاصة " أي: إنه قد يجيد وصفها بالحالة التي هي عليها، ويجملها، أو يقبحها بتشويه مقصود " [٣].

تشير المناهج الحديثة إلى أهمية الربط بين النص وقائله، " انطلاقا من مقولة أن فحص النسيج اللغوي للنص يميط اللثام عن أعماق الذات، ويضيء جوانبها

---

(١) د. حسن البندارى –الخطاب النفسي في النقد العربي القديم –مكتبة الآداب –الطبعة الثانية – ٢٠٠١–ص ٣٥.

(٢) د. شفيع السيد –الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي –ص ٢١١.

(٣) د. بشير الهاشمي –دراسات في الأدب الحديث –الدار العربية للكتاب –ليبيا –تونس –الطبعة الثانية ١٩٧٩ ص ٥٧.

المستترة " [١]، فهناك علاقة وثيقة بين" لغة الكاتب وشخصيته بأوسع معنى لهذه الكلمة " [٢]؛ فلكل كاتب طريقته الخاصة التي يعتمد فيها على وسائل فنية بعينها بهدف التأثير في نفس المتلقي؛ منها ما يعود إلى اختيار اللفظ المناسب، ومنها ما يعود إلى المعنى؛ مما يعطي اللفظة المختارة المعنى المطلوب، وهو في كل ذلك يمزج ما يقدمه بمشاعره وعواطفه وانفعالاته.

ويتضح ذلك من خلال دراسة لغة الكاتب، ومحاولة فهم الظواهر اللغوية، ومدى ارتباطها بشخصيته، وكيف استطاع الكاتب أن يوظف اللغة لبيان المعنى؛ " فتظل منطقة تصنيف مجموعات الظواهر اللغوية للأساليب، وتوصيف أوضاعها، وشرح العلاقات القائمة بينها، ثم تفسير دلالتها الإبداعية، وارتباطها برؤية الكاتب للعالم، تظل تلك المنطقة من أكثر مناطق الدراسة الأسلوبية خصوبة واستعصاء " [٣].

إلى جانب الدراسات النفسية التي لا تقتصر على الإبداع الأدبي، ولا تتوقف عند بعض مظاهر النص، وإنما تشمل أيضا "عمليات التلقي والاستجابة، والفهم، وبناء المتخيل مما يجعل الدائرة التواصلية تكتمل بهذا اللون من الدراسات النفسية "[٤]، فالمتلقي فاعل في العمل الأدبي.

يفضي ذلك المفهوم للأدب إلى تحديد غاية الدرس النقدي في تحليل الأعمال الأدبية، تحليلا يقوم على إدراك دور العناصر الجمالية المختلفة فيها، والكشف عن

---

(١) د. شفيع السيد –نظرية الأدب دراسة في المدارس النقدية الحديثة –مطبعة العمرانية للأوفست ٢٠٠٣ ص ٢٠٥.

(٢) د. شفيع السيد –نظرية الأدب دراسة في المدارس النقدية الحديثة –ص٢٠٦.

(٣) د. صلاح فضل –مناهج النقد المعاصر –أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي –الطبعة الخامسة – ٢٠٠٥ ص ٧٧ .

(٤) د. صلاح فضل –مناهج النقد المعاصر ص ٥٤.

جدل تلك العناصر سواء بين بعضها البعض، أو بينها وبين الرؤية ، أو الموقف الذي يصوغه الكاتب في عمله، ثم إدراك العلاقة الجدلية بين الأعمال الأدبية –بما فيها من تشكيلات جمالية ومواقف اجتماعية –والواقع الاجتماعي الذي أفرزها "[١]، وهذا يفسر أهمية أن يدرك القارئ أن لكل عمل أدبي خصوصية ما، وأن خصوصيته ؛ يقصد بها تميزه عن غيره من الأعمال التي تسبقه ،" وهذا يفرض أن يتعامل القارئ / الناقد مع الأعمال الأدبية بذهن متفتح ويقظ دائما "[٢].

مما سبق يتضح أهمية وصف المكان في أدب الرحلة؛ حيث يلعب دورا في عملية التقارب الذهني، والتصوري بين المتلقي وبين النص الأدبي، وبالنظر إلى هذه المنزلة التي يحتلها المكان ارتأيت الوقوف عنده، واتخاذه موضوعا لهذا البحث؛ فسلطت الضوء على مفهومه عند النقاد، وأهميته، كما أشرت إلى أنواعه المتعددة التي توضح فلسـفة المكان عند علي يوسف السعد في " قصاصات مسافر ".

وتتبع هذه الدراسة –في عمومها –المنهج الوصفي، وهو الذي يعتمد على النص الأدبي منطلقا وغاية بهدف وصفه، وفهمه بصورة أوضح.

أنواع المكان في الرحلة:

يمثل المكان محورا فاعلا من المحاور التي تدور حولها نظرية الأدب، غير أن المكان –في الآونة الأخيرة –لم يعد مجرد خلفية تقع أمامها الأحداث ؛ ولكن أصبح ينظر إليه على أنه عنصر شكلي، وضمني من عناصر العمل الفني، وأصبح تضافر

---

(١) د. سامي سليمان أحمد –مدخل إلى دراسة النص الأدبي المعاصر قراءات نقدية تطبيقية – القاهرة مكتبة الآداب –٢٠٠٦ –الطبعة الثانية ص١٠.

(٢) د. سامي سليمان أحمد –مدخل إلى دراسة النص الأدبي المعاصر قراءات نقدية تطبيقية ص ١٨.

العناصر المكانية يشكل بعدا جماليا من أبعاد النص الأدبي، وقد "نشأ الاهتمام بالمكان الفني نتيجة لظهور بعض الأفكار، والتصورات التي تنظر إلى العمل الفني على أنه مكان تحدد أبعاده تحديدا معينا ، هذا المكان (المكان الفني) من صفاته أنه متناه؛ غير أنه يحاكى موضوعا لا متناهيا هو العالم الخارجي، الذى يتجاوز حدود العمل الفني " (١).

يشير المعنى اللغوي لكل من لفظتي المكان والفضاء في المعجم إلى معنى الواسع من الأرض والموضع، وكثيرا ما يحدث خلطا في الاستعمال بين المكان والفضاء؛ وعلة ذلك أن كليهما بقدر ما يختلفان في المضمون، فإنهما يلتقيان في الشكل والهيئة، فلفظة المكان تشير إلى الموضع، لكينونة الشيء فيه(٢).

يستعمل المكان في الحقيقة والمجاز، فالفضاء يشير إلى المكان الواسع من الأرض الذي لا شيء فيه (٣)؛ أما الفضاء السردي فهو مهما تعدد وتنوع، هو فضاء شديد الانتظام، على أن نربط معرفته بما يحدث فيه، ونكتشف قواعد التحويلات الخاصة بانتقاله من البنية العميقة: النسق البنيوي إلى البنية السطحية: الفضاءات السردية " (٤)، فقراءة الخيال الأدبي وكتابته يمكن أن تشكل بذاتها جزءا من بناء فضاء خاص(٥).

---

(١) يورى لوتمان –جماليات المكان –تقديم وترجمة –سيزا قاسم –عيون المقالات الدار البيضاء – الطبعة الثانية ١٩٨٨ ص ٦٨.

(٢) ابن منظور –لسان العرب –دار المعارف –د.ت مادة " مكن ".

(٣) ابن منظور –لسان العرب –مادة " فضا".

(٤) د. محمد فكرى الجزار –البلاغة والسرد –ص ٢٧٩.

(٥) *Horton and Andrea-literature and the political John Editedby T.Baumeister.byRoutledge, London 1996 p151. .imagination*

وإذا استطعنا تقسيم عناصر الرحلة إلى مكوناتها، أو عناصرها الأولية، فإن (المكان) يحتل منزلة كبيرة، إن لم يكن في موقع الصدارة إلى جانب الزمان؛ إذ لا قيمة لرحلة من غير مكان، ولا مكان من غير رحلة، وكل مكون من مكونات الرحلة يمثل عتبة ينفذ منها المتلقي إلى النص؛ فالمكان "لا يوجد منفصلا عن بقية العناصر السردية، فهو يدخل –عبر النسيج الإبداعي –في علاقات، ووشائج مع المكونات الحكائية الأخرى للسرد مثل الزمان والحدث والشخصيات، مكونا أحد عناصر البناء ومنحازا إلى جماليات السرد في الوقت نفسه " (١).

وهنا يجب أن لا نغفل قضية رئيسة؛ هي أن عناصر أدب الرحلة المتعددة ترتبط بالمكان ارتباطا وثيقا؛ حيث يستطيع الكاتب أن يرسم معالم رحلته أثناء وجوده في المكان " فالاتجاه التركيبي بكل فروعه يعد السرد عالما مركبا من الناس والأحداث والأحاديث والأفكار، وهذا العالم يسير حسب قوانين خاصة أو صيغ معينة " (٢)؛ فالسرديات فرع معرفي يربط بين مكونات العمل الأدبي "فلكل محكي موضوع يحكى عن شيء ما. هذا الموضوع هو الحكاية. هذه الأخيرة يجب أن تنتقل (إلى المتلقي) بواسطة فعل سردي هو السرد " (٣).

ومن مكونات السرد أيضا عنصر الزمان؛ الذي يتداخل مع عنصر المكان ليحدد معناه، حيث يقوم كل منهما بدوره في تحديد سياق العمل الأدبي؛ فالمكان يتحدد وجوده عبر رؤية الكاتب في داخل النص، وخارجه، والزمان ينعكس على تلك

---

(١) د. فاروق عبد الحكيم محمد دربالة –فيلولوجى العدد –٥١ –يناير ٢٠٠٩ بحث بعنوان – الصعيد مكانا في قصص محمود البدوي ص ٢٢٤.

(٢) د. عبد الرحيم الكردى –السرد ومناهج النقد الأدبي –ص١١٥.

(٣) جيرار جنيت –نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير –ترجمة: ناجى مصطفى –دار الخطابي للطباعة والنشر –الطبعة الأولى ١٩٨٩ ص٩٧.

الرؤية حاضرًا وماضيًا. " فإذا كان الفعل اللغوي يحمل في بنيته دلالته على زمنه، فإنه يحيل افتراضا على مكان ما يحدث فيه " (١).

وكذلك يرتبط المكان بالوصف ارتباطًا وثيقًا؛ فإذا أراد الكاتب ذكر المكان الذي يقف عنده في رحلته؛ "لزمه أن يلجأ بالضرورة إلى الوصف، وأن يوقف بالتالي مجرى محكيه، ولو لوقت وجيز" (٢)؛ لذلك يغلب أحيانًا وصف المكان في أدب الرحلة أكثر من وصف العناصر الأخرى؛ حيث يصف أجزاء المكان، ومحتوياته ومكوناته، وفلسفته " ولا يماري أحد في أن الفن تعبير غير مباشر، وبما أن مهمة الناقد هي تفسير الفن فمن واجبه أن يترجم المعاني غير المباشرة إلى معان واضحة " (٣)

يسعى كاتب الرحلة دائما لإيجاد عالم آخر بموازاة الواقع، قد يتشابه معه أو يتجاوزه أو يقترب منه، ولكن الواقع في كل هذه الحالات يختفي من خلال سيطرة الصورة الفنية التي يرسمها الكاتب بكلماته، ويجعل لها حضورا فاعلا في النص السردي؛ حيث "احتلت الإشارات السردية مستوى السرد، كما احتلت الإشارات أيضا مجموع العمليات التي تعيد تأصيل الوظائف والأفعال في الإيصال السردي المرتكز على باثه ومستقبله "(٤).

جاءت "قصاصات مسافر " للكاتب علي يوسف السعد معبرة عن واقع رحلاته حول العالم التي يشكل المكان فيها ركنا قويا، فضلا عن وظيفته في تصوير أبعاد الرحلة؛ فنرى اهتمام الكاتب بربط المكان بالحدث إلى حد أن يصير المكان جزءا من

---

(١) د. محمد فكرى الجزار – البلاغة والسرد –ص ٢٧٥.

(٢) جنيت –الفضاء الروائي –ص٢٥ .

(٣) د. شكري محمد عياد–على هامش النقد –ص١١٠.

(٤) رولان بارت –مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص –ترجمة د. منذر عياشي –مركز الانماء الحضاري للدراسة والترجمة والنشر –الطبعة الأولى –١٩٩٣ ص ٧٧.

السرد، فهو جزء من نسيج النص؛ فالمكان قد يكون "واقعا جميلا، أو مجرد خيال وأفق يتردد في حياة الإنسان يرتبط بالتاريخ إلى جانب الجغرافيا، وبالأحلام والأساطير " [١]، وقد أشار الكاتب إلى هذا المكان المرتبط بالأساطير والخيال في قصاصته " قصاصة خرافية في ضيافة وحش البحيرة " فمعظمنا قد مرت عليه أسماء مثل (حمارة القايلة)، و(أم الدويس) و(الغول)، وما زلنا نبتسم كثيرًا عندما نتذكر الرعب المرتبط بهذه الأسماء "[٢].

وكما ارتبط المكان بالأسطورة والخيال، ارتبط أيضًا بالواقع والحقيقة؛ وهو في هذا وذاك يهتم بما يمكن وصفه؛ فيصبح الوصف كيانا فنيا له أهميته في احتواء الأفكار.

وسوف يقف البحث عند الأمكنة الطبيعية الواسعة، والأمكنة الصناعية المغلقة لكثرة ترددهما داخل رحلة الكاتب.

فمن الأمكنة الطبيعية التي وصفها الكاتب في قصاصاته الصويرة المدينة المغربية التي لا تخاصمها الرياح كما وصفها الكاتب؛ " إذ يدوي صفيرها طوال العالم، الصويرة أو السويرة تصغيرًا للسور، المدينة المغربية الساحلية الساحرة والتي تصلها عن طريق مراكش عبر طريق ساحر، هذا الطريق هو مصدر الصور الشهيرة التي ترى فيها الماعز المشاغبة متسلقة لأشجار (الأرغان) تلوك بأفواهها ثمار هذه الشجرة التي اشتهرت بزيتها المرتبط ارتباطا وثيقا بالمغرب " [٣].

---

(١) د. بسام على أبو بشير –مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية) –المجلد الخامس عشر –العدد الثاني –يونيه ٢٠٠٧ –بحث بعنوان: جماليات المكان في رواية " باب الساحة " لسحر خليفة ص ٢٧٦.

(٢) علي يوسف السعد –قصاصات مسافر ص ٨٨.

(٣) السابق ص ٦٣.

يرتكز الكاتب على أهم ما يجذب الانتباه في المكان؛ سواء أكان عيبا أم مزية، فلا يضخم الكاتب صورة المكان كرسام الكاريكاتير؛ بل يبرزها ليجعلها نقطة ارتكاز ينطلق منها في قصاصاته، وهو في هذا يهتم بما يمكن وصفه؛ فيصف بمقدار ما يكفي لبيان الصورة، فيصبح الوصف كيانا فنيا له أهميته في احتواء الأفكار.

تتعدد مظاهر الرحلة في قصاصات مسافر؛ فقد أضاف الكاتب رصيدا كبيرًا من رحلاته خارج نطاق المنطقة العربية؛ في بيئات مختلفة من الناحية الجغرافية، والاجتماعية، والسياسية، والثقافية؛ ففي قصاصة قرغيزية–كما أطلق عليها – يصور السعد تجربة جديدة في بلاد تتمتع بالطبيعة البكر الخلابة، طبيعة تفصلك عن ضجيج التطور العمراني والتقني، طبيعة تسمح لك بخوض غمار تجارب جديدة مختلفة، معتمدا في ذلك على الاستفهام لجذب الانتباه وإثارة الذهن، " هل تريد تجربة لحم الخيول، وشرب حليبها غريب الطعم؟ هل لديك الرغبة برؤية الطبيعة البكر التي لم تتلوث بعد بالعمران، والتطور الذي قد يكون مزعجًا في بعض الأحيان؟ هل جربت التجول في غابات الجوز على ظهر خيل، وتحت زخات المطر لتعيش تجربة فريدة؟ أحدثكم اليوم عن قير غستان، البلاد التي تعانق جبالها الغيوم، فهي دولة تشغل الجبال ما يقارب ٧٠%من أراضيها الخضراء، كما ترتفع ٩٤%من أراضيها عن الألف متر " [١].

لقد اعتمد الكاتب في نقل المشاهد الحية على الصورة الوصفية المباشرة القريبة من الأذهان " تعانق جبالها الغيوم "؛ ذلك أنه يرسمها من مصادرها المادية المدركة بالحواس؛ فلا يميل الكاتب إلى الوصف المعقد الذي يرهق ذهن المتلقي، ويصرفه عن الفكرة.

---

(١) السابق ص١٥٨.

ثم ينتقل الكاتب إلى طريقة جديدة في وصف رحلته، اعتمد فيها على الشعر؛ فقد وصف الرحلة في مجموعة أبيات شعرية، ترسم صورة رحلته إلى سريلانكا من خلال نظم هذه الرحلة في قصيدة شعرية، "في رحلتي الأولى إلى سريلانكا أو سرنديب، فوجئت بمدى الجمال الذي رأيته، والطبيعة التي تخلب الألباب، وعجزت عن الوصف بين أحيان وأحيان، وتفتقت القريحة عن قصيدة كتبتها – ولست بشاعر – أصف بها الرحلة، وأحببت أن أشارككم هذه القصيدة كطريقة جديدة في نشر القصاصات السياحية.

فِي ذَاكرتي قِصَّةُ سفر	لبلاد تُدعى سيلان
خضراء بطقس معتدل	لكن تملؤها الغِربان
في وسط البحر لها أُنسٌ	أطيب ما فيها السُّكان
قالوا قد يُخشى من خطر	من طُرقٍ فيها توهان
فأجبت دعوني في سفري	فأنا من نسل الشجعان
في (نوراليا) أفخر شاي	والمطر غزير هتان
وأزقتها متعة بصر	تلهم للشاعر ديوان[١]

تعكس الأبيات علاقة الكاتب بالطبيعة، وعشقه لها، وتعلقه بها، مما يبث الوعي بالمكان وأبعاده؛ فالربط مكاني في الأساس "وبمثل هذه الأساليب يقوى الجانب الفوتوغرافى فالإنسان يدرك العالم إدراكا بصريا "[٢].

(١) السابق ص ١٠٣.

(٢) يورى لوتمان –جماليات المكان –ص٦٨.

وإذا كان الكاتب متأثرًا بالطبيعة لجمالها وروعتها؛ فقد جذبه أيضًا خلوها من ضجيج المدن وما فيها من مادية صاخبة، ويظهر ذلك واضحا في رسم أبعاد الطبيعة الخلابة في قرية زيرمات في سويسرا، وكيف تأثر الكاتب بجمالها، وانعكاس ذلك على كلماته " أحيانا نحتاج – وبكل بساطة – أن نهرب لأخذ قسطٍ من الراحة بالابتعاد عن كل المنغصات وعن الروتين، وإعطاء العقل فسحة .. يكون هذا الهروب هو الوقود والدفعة التي نحتاجها، والتي ستعطينا طاقة لفترة طويلة .. اهرب إلى زيرمات، وابتعد عن الضجيج، واقض وقتك بين متحف ماترهورن الشهير الذي سيحدثك عن كل ما ستحتاج معرفته عن المدينة. وإذا زرتها في الصيف فبإمكانك مشاهدة استعراض ماعز (البلاكنيك) الذي يمتد لمدة ستة أسابيع، تصطف فيه الماعز السويسرية ذات الشعر الأسود والأبيض في عرض جميل " [١].

يتميز أسلوب الكاتب بشاعرية الطرح؛ فجاءت الكلمات بسيطة موحية واضحة، تصل مباشرة للمتلقي، فيأتي الوصف تلقائيا "يكون هذا الهروب هو الوقود والدفعة التي نحتاجها "؛ فالوصف فن قوامه الكلمة؛ عملية معرفية تقوم بالربط بين الكاتب والمتلقي، إحساس بالجمال لا يقتصر على حاسة واحدة؛ فثمة حواس مختلفة تستقبل الصورة الوصفية فتحولها من صورة مكتوبة إلى صورة مدركة موحية.

(١) علي يوسف السعد قصاصات مسافر ص١٠٧،١٠٦.

دلالات توظيف المكان في الرحلة:

ومن الأمكنة التي وقف عندها الكاتب كثيرا الأمكنة الصناعية المغلقة، وسوف يقف البحث على بعضها؛ بغية التعرف على شكلها، وشكل انغلاقها وتعددها، وشكل تحرك الكاتب داخلها.

تعكس أشكال المقاهي فلسفة بعينها تخبر عن طبيعة روادها؛ من ذلك ما ذكره الكاتب تحت عنوان "قصاصة مح رائحة القهوة "؛ حيث يصف المقاهي الغريبة التي مر بها في رحلاته، وتجاربه في بعض المقاهي الغريبة في مفهومها؛ " في كوريا الجنوبية، كانت لي زيارة لمقهى (القطط)، وإذا كنت محبا للقطط، فستجد نفسك محاطا بقطط من كل شكل ونوع، هذا ينظر لك بنظرة شزرة، ينتظر منك أن تمسح على رأسه، والآخر يتمغط من الملل، وثالث يشبه الفأر الكبير، هو مقهى متميز جدا لمن يحب هذا النوع من الحيوانات، مع اهتمامه بشكل كبير بالنظافة، ويقع في منطقة ميونغدونغ وسط العاصمة سيئول .. في العاصمة الكورية الجنوبية، واليابان، ودول شرق آسيا، عدد كبير من المقاهي الغريبة، ولكني لم أجرب إلا القليل منها، لأنني أرى في بعضها مبالغة .. مررت بجانب مقهى للكلاب، ولم أدخل خوفا من الكلب الذي كان يقف على "الكاو نتر " لأخذ الطلبات، خفت أن يقضم قطعة من يدي. أما مقهى الزواحف، فقد رأيته من بعيد، ولكني لم أتصور المتعة في أن أحتسي رشفات من قهوتي، وفحيح الأفاعي يحيط برأسي. ناهيك عن مقاهي البوم والوعل والغزلان " [١] .

هكذا يتدفق السرد في " قصاصات مسافر" بشكل سريع جذاب؛ فوقعه خفيف؛ ولكنه يدوم، وهذه الميزة هي التي تبعد بأدب الرحلة عن طواحين الملل والرتابة،

---

(١) السابق ص٣، ٤.

وتمنحه حيوية وجمال، فهو قريب من طبيعة الإنسان بطموحاته وآلامه وأحزانه، كما يتعامل مع مفردات أولية ذات طبيعة خاصة؛ تتسم بالمرونة والسلاسة؛ بحيث تأتى في سياق النص كما هي من غير تحريف أو تبديل.

وإذا كانت الرحلة ترتبط بالبهجة والسرور؛ فهناك نوع من الرحلة له ظلال حزينة معتمة، ذكره الكاتب تحت عنوان السياحة المظلمة؛ مثل سياحة الموت أو الحزن أو الصدمة" وهي سياحة تسبر أغوار فصل مظلم، أو حقبة تاريخية مخيفة، أو موقع حدثت فيه قصة لها تأثير مرعب، قد تكون زيارة لنصب تذكاري لكارثة طبيعية، أو مكان شهد أحداثًا قاتلة ومجازر مخيفة .. على الرغم من الخلاف الحاصل في قبول هذا النوع من السياحة؛ إذ يتضايق بعض سكان مناطق الكوارث من السياح، لإيمانهم بأنها مواقع عبر، وليست مقاصد سياحية، ولكن يعتقد آخرون بأن هذا النوع من السياحة هو وسيلة للاتعاظ، وأخذ الدروس من الماضي "[1].

السياحة المظلمة سياحة ترتبط بالمكان ارتباطًا قويًا، سياحة عبر الزمان من خلال المكان، هكذا تُجَدِّد الرحلة الذكريات، ومشاعر الألم والحزن على قتل الألاف من أجل إنشاء سكة حديد الموت كما أسماها الكاتب في قصاصة مؤلمة تحدث فيها عن إنشاء سكة حديد الموت ؛ " لطالما فاحت من الحروب رائحة الدم والقسوة والموت .. كنت قد قرأت عما يسمى " سكة حديد الموت الموجودة في مدينة كانشانابوري في تايلاند، ودارت العديد من التخيلات في بالي، وعقدت العزم على رؤية هذا الطريق المخيف ... أما قصة هذه السكة، فخلال الحرب العالمية الثانية احتل الجيش الياباني الأراضي التي امتدت من سنغافورة حتى بورما ولتزويد قواته في بورما، والاستعداد للهجوم على القوات البريطانية في الهند، أراد الجيش الياباني

(١) السابق ص ١٢٢.

إنشاء طريق بري لتجنب الطرق البحرية البديلة، التي كانت تعج آنذاك بسفن الحلفاء النشطة .. وبحكم القوة والتسلط سخر ما يقارب من ١٨٠ إلى ٢٥٠ ألف عامل لبناء هذا الخط ، أحضروا من بورما والصين وإندونيسيا وماليزيا وسنغافورة وتايلاند ، هذا بالإضافة إلى أكثر من ٦٠ ألف أسير حرب، كانت ظروف المناخ تضيف القسوة على بيئة العمل اللاإنسانية، لإنهاء سكة الحديد بأسرع وقت حيث بني ٤١٥ كيلومترا في ستة عشر شهرا ، ولأنهم أسرى حرب ، كانت المعاملة الجافة والمهينة لهم ، وإجبارهم على العمل لساعات طويلة في ظروف غير إنسانية ، مع عدم توفر الغذاء الكافي والإمدادات الطبية ، كان ذلك سببا لسوء حالتهم الصحية ، وموت الآلاف بسبب الكوليرا والملاريا أو الجوع والإرهاق " [١].

السياحة المظلمة نوع مختلف من السياحة آثر الكاتب أن يشير إليه؛ فمن علامات نضج الرؤية عند كاتب الرحلة ألا يستغرق في حالة واحدة، وتتجمد في نظره الأشياء والأماكن، وكأنما يسير على وتيرة واحدة، ثابتة يكرر فيها كلماته وصوره؛ لذلك فكاتب الرحلة يبتعد قدر المستطاع عن الجمود والرتابة في عرضه لرحلته، فلا يكرر المشاهد إذا كانت لا تضيف جديدا للقارئ، ولكنه يعمد إلى الإضافة من خلال تحري المشاهد المختارة بعناية بالغة.

تشير الدراسات الأدبية إلى أن أهمية المكان لا تأتي من حيث هو امتداد للنص الأدبي، وإنما تأتي بما يفيد في صياغة شكل النص ومضمونه؛ بحيث لا يأتي وصف المكان زائدا عن المعنى؛ وإنما يمضي مع المعنى في سياق واحد؛ هكذا شارع الصحافة في لندن لم يكن موقعًا جغرافيًا أو إطارًا للحدث؛ وإنما أصبح مكانًا له سيادة وتاريخ، مكان يختصر تاريخ الصحافة العالمية في شارع "فليت ستريت .. فعلى مدى

(١) السابق ص ١٢٥.

قرون طوال مضت، رافق الشارع تاريخ الطباعة والنشر والصحافة البريطانية منذ نشأتها، حيث كان معقلًا لأشهر وأعرق الجرائد والمؤسسات الصحفية البريطانية، فضلًا عن أشهر الوكالات الإخبارية العالمية، حتى بات يعرف بالصحافة، وتُعرف الصحافة به. بدأت قصة هذا الشارع مع الصحافة مبكرا، فمع حلول عام ١٧٠٢ م صدرت أول جريدة مطبوعة في لندن، انطلاقا من هذا الشارع، ثم توالى نشوء عديد من الصحف في الجوار، وبات " فليت " مع مرور العقود معروفا كمقر لكبريات الصحف البريطانية، مثل الديلي ميل، والديلي تليجراف، والإندبندنت وغيرها " [١].

يشكل المكان إيقاعا نفسيا في طريقة شعرية للنص، بحيث تبدو اللغة السردية مشبعة بحالة شعرية نفسية؛ إذ يعد "شارع الصحافة " المكان الأكثر تاريخا وعبقًا حين تعبره، وتمر من خلاله " فأنت بصدد تاريخ يتألق في ناظريك من كل اتجاه، لقد خُبِزَت وطُبِخت هنا كثير من الحكايات والقصص، هنا كانت صيحات بائعي الجرائد تتهادى إلى آذان العابرين، طازجة بأخبارها الحصرية الآتية توا من مقراتها القريبة. زال كل هذا بفعل التكنولوجيا والتطورات الصحفية وهجرة المقرّات " [٢].

هكذا تحول المكان ليصبح بمثابة قضية يرتبط بها ويتلازم معها؛ " فالقضية وطن، والوطن مكان يتسع للجميع " [٣].

تتعدد صور الرحلة فهي في بعض مراحلها زيارات سياحية في محيط العالم العربي نفسه، أو بعثات للدراسة في الجامعات الغربية، أو زيارات سريعة لعواصم العالم، وتلك جميعها تعطي الكاتب مزيدا من الوعي في معرفة قضايا المجتمع

---

(١) السابق ص ٩٧.

(٢) السابق ص٩٨.

(٣) د. بسام على أبو بشير –جماليات المكان في رواية " باب الساحة " لسحر خليفة ص٢٨٠.

والانسان، وإذا كان من غايات الكاتب أن يكتشف العالم من حوله من خلال الرحلة إلى هذا العالم؛ فقد يكتشفه أيضًا وهو في مكانه من خلال الرحلة داخل الكتاب " فلا ينحصر السفر بالطائرات والسّفن والقطارات، بل إن مسمى الرحلة كما يعرفه الكثيرون هو مسمى واسع لا يرتبط دائمًا بالماديات والأماكن، فكم مرة سافرنا بخيالنا وبأفكارنا دون أن ننتقل بأجسادنا؟ يمر الجميع بتجارب السّفر في وجدانه وعواطفه، وربما تتذكر إحدى رحلات خيالك الواسع وما وصلت إليه في عالم التَرحال دون أن تبرح مكانك " [١] .

مكان في أعماق النفس لا يستطيع أن يدخله ، أو يراه إلا من عاش هذه التجربة بنفسه ، وتيقن من حقيقتها ، حالة نفسية تسيطر على القارئ ، تجعله يعيش داخل الكتاب لا خارجه، أجواء من السعادة الداخلية تلقي بظلالها على نفسية القارئ الذي يسافر افتراضيا عبر صفحات الكتاب، " كم هو شعور جميل أن تنتزع نفسك من واقع الحياة ومشاغلها ومتاعبها ، وتعيش مع كتابك في رحلة ماتعة لا تهم هنا نوعية الكتاب ، بل المهم أن تفهمه ، وتشعر أنك أنت من كتب تفاصيله ، تتحرر من روتينك اليومي ، وتعيش بطلا في كتابك ، تستشعر فصول السنة المختلفة فيه ، تزور الأماكن التي ذُكرت كما لو كنت مسافرا ، وربما لو كنت مسافرًا لما زرتها قط ، تعيش الأحداث في سفر متعدد الأبعاد "[٢] .

إن طبيعة الأحداث داخل الرحلة، ووسائل التشكيل الأدبي التي استخدمها الكاتب من: سرد ووصف ورمز وصور فنية، كل هذا " ينشئ جغرافيا تطورية –إن صح التعبير –للأماكن التي تحدث فيها، تنتج العلاقات التي بينها دلالة نوعية

---

(١) علي يوسف السعد –قصاصات مسافر ص٢٨.

(٢) السابق ص ٢٩.

للفضاء السردي عموما وليس لأماكن حدوث الأحداث فحسب " [١] .

فالمكان لم يكن مجرد خلفية للأحداث، ولا مجرد حيز للشخصيات؛ بل هو حضور مكثف، شغل حيزا كبيرا في الرحلة، وقام بدور البطولة فيه استنادًا إلى أن المكان يعد بؤرة فنية تجتمع فيها عناصر الرحلة وتتشابك.

ويأتي المكان في " قصاصات مسافر " مصحوبًا بفكرة الكاتب وفلسفته الخاصة؛ حيث جاء وصف المكان كاشفًا عن دلالة لغة الخطاب التي " تحمل في مغزاها دلالة الفن الواقعي في التعبير عن الإنسان ومشكلاته، بشكل لغوي محسوس وبسيط، دونما تجريد أو إيغال في البيان أو الرمز "[٢].

ومن جهة أخرى ينفصل المكان داخل أدب الرحلة، عن المكان في الواقع انفصالا جذريا؛ فمهما كانت واقعية المؤشرات التي تحيط بالمكان في أدب الرحلة؛ فإنه يبقى مكانا فنيًّا متخيلا يشير إلى مكان واقعي شاهده الكاتب أثناء رحلته، مكان متخيل يتجاوز المكان المادي الواقعي، له صور مختلفة تتنوع بتنوع الفاعلين داخله، وبتنوع المتلقين له خارجه.

ومن خلال دراسة المكان في " قصاصات مسافر" يتضح أن مستوى التوظيف الفني لعنصر المكان ومفرداته، جاء بدرجات متفاوتة؛ فالكاتب قد حالفه التوفيق في وصف المكان داخل الرحلة، إلا أنه قد مال إلى الاستطراد في وصف المكان في مواطن محددة، حيث بالغ في وصف جزئيات المكان وتفاصيله الدقيقة كما جاء في وصف (رادار دوغا)، وهو نظام أفقي من شبكة رادارات للإنذار المبكر الصاروخي

---

(١) د. محمد فكرى الجزار– البلاغة والسرد ص ٢٧٨.

(٢) د. أحمد زلط –في جماليات النص رؤية تحليلية ناقدة –الشركة العربية للنشر والتوزيع – الطبعة الأولى ١٩٩٦ ص ٦٢–٦٣.

يوجد في منطقة تشيرنوبيل في أوكرانيا، والجزء الآخر منه كان في صربيا الشرقية، يبلغ طوله ١٥٠مترا، ويحتل مساحة ٧٠٠ متر [١] .

وإذا كان لا يخلو عمل سردي من المكان، فإن حضوره الفاعل في النص الأدبي يضفي عليه قيمة دلالية كبرى، فضلا عن الوظيفة الجمالية وإذا كان الكاتب عادة ما يصمم المكان؛ بهدف رسمه، وتحديد أبعاده داخل النص، فالكاتب وهو يستطرد في وصف الأمكنة المختلفة ، ووصف أشيائها، ووصف مجمل الحركات داخلها، يفعل كل ذلك؛ لكي يرسخ فكرة جوهرية هي علاقة الإنسان بالمكان حبا وكرها ؛ فربما ما يميز المكان أنه قريب إلى نفس الكاتب؛ كذلك كانت لبنان باريس الشرق ، وتعلق الكاتب بها منذ طفولته ورغبته الشديدة في زيارتها، " لبنان وما أدراك ما لبنان ، باريس الشرق في زمنها ..كنت متشوقا لزيارتها لكثرة ما سمعت عنها من والدتي ، كنت متلهفا لأعيش أجواءها وثقافتها ، وأجوب شوارعها ومقاهيها الثقافية ، وأتعرف على شعبها ، وعندما زرتها ، تعلقت بحبها بسبب أهلها وناسها الذين هم كلمة السر ؛ فالشعب اللبناني شعب مضياف ودود لطيف المعشر ، ذو ابتسامة شاحبة لم يطفئها شظف العيش " [٢].

هكذا يكتسب السرد معناه من الواقع الذي يستعمله، وارتباطه بعناصر متعددة "حدودها ليست القصص فقط، ولكنها عناصر من مادة أخرى (حوادث تاريخية، تعيينات، سلوكيات..)" [٣].

---

(١) علي يوسف السعد –قصاصات مسافر ص٤٧.

(٢) السابق ص٣٥ ،٣٦.

(٣) رولان بارت –مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص ص٨٠.

إن المتأمل لطريقة الكاتب في رصد رحلاته حول العالم، يجده ينتقل من قصاصة إلى أخرى، ومن مكان إلى آخر؛ دون مسوغ غير رغبته في سرد قصاصة جديدة، تقع في مكان جديد، فهو ينتقل من حديث إلى آخر؛ لأنه تذكر حادثة لم يسبق له أن تذكرها، ويستدعي هذه الأحداث من الذاكرة، ويجمعها في خيط واحد، حتى وإن لم تكن القصاصة رحلة؛ لكنها ترتبط بالرحلة بطريقة ما من ذلك حديث السعد عن رحلة أصحاب الهمم ، وتشجيعه لهم بخوض غمار الرحلة؛ ولكن بعد التسلح بالمعلومات عن مكان الرحلة ، والاستعداد بكل الأغراض التي تساعد أصحاب الهمم " كما أن من المهم أن تحرص على أخذ جميع معداتك وأدويتك ،لتكون معك في رحلتك ، وتحتفظ ببعض التقارير التي تشرح حالتك ، والتي ستكون معينا أحيانا –لا قدر الله –في حال حصول أي حادث ، استفد في سفرك من المميزات التي تقدم لك ، فأنت شخصية هامة ، لا تقف في الطوابير ، ولك الأولوية في المطاعم والملاهي ، وفي المطارات وصالات الانتظار .. فأنت ضيف فوق العادة، وتهم راحتك الجميع، اسأل دائما عن حقوقك، وعن المميزات الممنوحة لك، واستمتع وشاهد العالم بمنظور مختلف "[1].

هكذا يحشد الكاتب في "قصاصات مسافر " صورا وصفية للمكان، استوحاها من رؤيته للواقع؛ فدفعه ذلك إلى أن يُزكي ملكته اللغوية، ويوظف حواسه في نقلها بحيث يقصد الجوهر والعمق؛ فرسم بلغته صورا تعطي دلالات جمالية للمكان تحاكي قيمته على أرض الواقع، وتعكس فلسفته من وجهة نظر الكاتب، فما يكتبه الرحالة عن رحلته هو خليط من الواقع، ومن تصوراته عنه، ومما يدخره في عقله من معلومات ومعارف.

(١) علي يوسف السعد–قصاصات مسافر ص٧٠.

الخاتمة

- ❖ -حرص الكاتب على تسجيل رحلاته ومشاهداته في إبداع مستقل له طابع خاص يعكس فلسفة المكان من وجهة نظره؛ وقد زخرت" قصاصات مسافر " بالعديد من المفارقات التي تتداخل فيما بينها؛ كإشكاليات تصور البعد الثقافي والمعرفي للأماكن التي يصفها بكلماته.
- ❖ يتجلى الطرح الفلسفي في" قصاصات مسافر " في ثنايا وصف الكاتب؛ الذي يظهر الفروق، ويحدد الخصائص، وسمات الأماكن في المجتمعات الشرقية والغربية التي زارها.
- ❖ -رسم علي السعد في " قصاصات مسافر" نهجا متميزا في أدب الرحلات؛ حيث أضاف إلى البعد الجغرافي للمكان، دراسة البعد الثقافي للمجتمعات، وعاداتها؛ مما يساعد في تبادل المعارف والثقافات بين الشعوب كما تتبادل السلع والخبرات.
- ❖ يوظف الكاتب المكان في " قصاصات مسافر " بطريقة تنقل المكان وكأنه انعكاس للواقع؛ فالمكان في أدب الرحلة يختلف عن المكان في النص الروائي أو المسرحي؛ فهو مكان على أرض الواقع رسمه الكاتب بكلماته، وكلما استطاع الكاتب أن يرسم بكلماته المكان، كانت صورته أقرب إلى الذهن.
- ❖ تميزت بعض الصور الوصفية عند علي السعد بالبكارة في الصياغة الفنية، وقد غلب على قصاصاته تقريب الصورة الذهنية للمكان بحيث تكاد تطابق صورة المكان في الواقع؛ كما استطاع أن يجمع أساليب متعددة في وصف

واحد؛ مما يعكس فلسفته ورؤيته الخاصة للمكان؛ فالوصف ليس مجرد نقل قائم على وصف الأبعاد المادية للواقع؛ وإنما يستخدم الكاتب خياله لإعادة تشكيل الصورة الحقيقية؛ من خلال إيجاد العلاقات بين أطرافها.

- ❖ جاءت كثير من الصور الوصفية في " قصاصات مسافر" مباشرة وقريبة من الأذهان؛ ذلك أن الكاتب يرسمها من مصادرها المادية المدركة بالحواس، سواء أكانت مرئية أم مسموعة.
- ❖ يؤثر الكاتب الصور الوصفية القريبة؛ التي يكون وجه الشبه فيها واضحا فلا يميل إلى الوصف المعقد الذي يرهق ذهن المتلقي، ويصرفه عن الفكرة.
- ❖ يلاحظ في " قصاصات مسافر " التركيز في الوصف على ما يميز المكان عن غيره؛ سواء أكان ما يلفت النظر عيبا أم مزية.
- ❖ تناول الوصف في قصاصات علي السعد عناصر متعددة؛ منها ما هو إنساني محض، ومنها ما هو من طبيعة الجماد؛ كالأشياء والأماكن، وهو في هذا وذاك يهتم بما يمكن وصفه؛ فيصف بمقدار ما يكفي لفهم الصورة.
- ❖ إن أهم ما يميز أدب الرحلة عند علي السعد انشغاله بفلسفة المكان في رحلاته المختلفة حول العالم؛ وقد جعله هذا الاحتفال يتعمق في الوصف؛ لمنح كلماته حركة تصويرية حية؛ حيث يكشف الوصف عن موهبة الكاتب وإبداعه في نسج خيوط رحلته موضحا فلسفته الخاصة داخل ثنايا قصاصاته.
- ❖ وما سبق ذكره يكشف أهمية أدب الرحلة الذي كان، ولا يزال حاضرا وممتدا حتى اليوم مع اختلافه في الشكل والهدف والطريقة؛ فأدب الرحلة موسوعة معرفية شاملة يُرجع إليها، ويفيد منها الباحث والقارئ والناقد إلى جانب طاقة

البهجة والانبهار والتدبر التي يبثها الكاتب في رحلته، مما يضع كاتب الرحلة في سياق خاص مختلف؛ فأكثر الكُتاب قراءة وصلة بالناس ورحلة في بلدان العالم–هم أكثرهم قدرة على الفهم العميق للإنسان، والحياة من حولهم، وأعمقهم وعيا بالحقائق، وإدراكا للحلول والإجابات عن كل ما يتصل بقضايا الانسان المعاصر ومشاكله.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن منظور -لسان العرب -دار المعارف -د.ت .

- د. أحمد زلط -في جماليات النص رؤية تحليلية ناقدة -الشركة العربية للنشر والتوزيع -الطبعة الأولى ١٩٩٦.

- د. بشير الهاشمي -دراسات في الأدب الحديث -الدار العربية للكتاب -ليبيا - تونس -الطبعة الثانية ١٩٧٩.

- د. حسن البنداري -الخطاب النفسي في النقد العربي القديم -مكتبة الآداب - الطبعة الثانية -٢٠٠١-.

د. سامي سليمان أحمد -مدخل إلى دراسة النص الأدبي المعاصر قراءات نقدية تطبيقية -القاهرة مكتبة الآداب -٢٠٠٦ -الطبعة الثانية.

- د. سامي سويدان. جسور الحداثة المعلقة من ظواهر الإبداع في الرواية والشعر والمسرح -دار الآداب -بيروت -الطبعة الأولى -١٩٩٧.

- د.شفيع السيد -الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي -مكتبة الآداب -الطبعة الثانية ٢٠٠٩ .

- د. شفيع السيد -نظرية الأدب دراسة في المدارس النقدية الحديثة -مطبعة العمرانية للأوفست ٢٠٠٣.

-د. شكري محمد عياد-على هامش النقد -أصدقاء الكتاب للنشر والتوزيع -الطبعة الأولى – ١٩٩٣.

- د. صلاح رزق -أدبيه النص – دار الثقافة العربية – الطبعة الأولى – ١٩٨٩م.

– د. صلاح فضل –مناهج النقد المعاصر –أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي – الطبعة الخامسة – ٢٠٠٥.

– د. صلاح فضل –منهج الواقعية في الإبداع الأدبي –مؤسسة المختار –الطبعة الثانية ١٩٩٨ .

– د. عبد الرحيم الكردي –السرد ومناهج النقد الأدبي –مكتبة الآداب –٢٠٠٤ .

– علي يوسف السعد –قصاصات مسافر من كل بلد حكاية – دار إبهار للنشر والتوزيع –الطبعة الأولى –٢٠٢٣ .

– د. محمد عبد المطلب –جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم –الشركة المصرية العالمية للنشر –لونجمان –الطبعة الثانية ٢٠٠٤.

– د. محمد فكرى الجزار –البلاغة والسرد نحو نظرية سردية عربية –الهيئة العامة لقصور الثقافة الطبعة الأولى –٢٠١١ م.

– د. مصطفى الصاوي الجويني آفاق من الإبداع والتلقي في الأدب والفن –دار المعارف – ١٩٨٣.

– د. نبيلة إبراهيم سالم –نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة – النادي الأدبي – الرياض – ١٩٨٠ .

– ياسين النصير – الرواية والمكان – دار نينوي سورية – الطبعة الثانية – ٢٠١٠ .

الدوريات:

–"د. بسام على أبو بشير –مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية) – المجلد الخامس عشر –العدد الثاني –يونيه ٢٠٠٧ –بحث بعنوان: جماليات المكان في رواية " باب الساحة " لسحر خليفة.

– د. شكري عزيز الماضي –أنماط الرواية العربية الجديدة –عالم المعرفة – العدد ٣٥٥ – ٢٠٠٨.

–د. فاروق عبد الحكيم محمد دربالة –فيلولوجى العدد –٥١–يناير ٢٠٠٩ بحث بعنوان –الصعيد مكانا في قصص محمود البدوي.

المراجع المترجمة :

– جنيت –كولد نستين –رايمون –كريفل –بورنوف / أويلى –آ يزنزفايك –ميتران – الفضاء الروائى –ترجمة –عبد الرحيم حزل –أفريقيا الشرق ٢٠٠٢– المغرب.

– جيرار جنيت –خطاب الحكاية بحث في المنهج –ترجمة محمد معتصم –عبد الجليل الأزدي –عمر حلى –المجلس الأعلى للثقافة –المشروع القومي للترجمة – الطبعة الثانية ١٩٩٧.

– جيرار جنيت –نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير –ترجمة: ناجى مصطفى –دار الخطابي للطباعة والنشر –الطبعة الأولى ١٩٨٩.

– رولان بارت –مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص –ترجمة د. منذر عياشي –مركز الانماء الحضاري للدراسة والترجمة والنشر–الطبعة الأولى –١٩٩٣.

– غاستون باشلار –جماليات المكان –ترجمة غالب هلسا –المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر الطبعة الثانية ١٩٨٤ .

– يورى لوتمان –جماليات المكان –تقديم وترجمة –سيزا قاسم –عيون المقالات الدار البيضاء –الطبعة الثانية ١٩٨٨.

المراجع الأجنبية :

- John Loyons:Linguistic- an introduction- Cambridge1995

-literature and the political imagination. Editedby John Horton and Andrea T.Baumeister.byRoutledge . London 1996 .